

## المحاضرة الثالثة

مصطلح الخطاب وتجلياته في الدراسات الحديثة

الدكتور زياد الزعبي  
جامعة اليرموك

الأربعاء 16 محرم 1435هـ- الموافق 20 تشرين الثاني 2013م

يقال: "مفاتيح العلوم مصطلحاتها"، بمعنى أن المصطلح يوضع أو يسك لكي يحمل مفهوما محددًا في حقل علمي معين ليساعد في التعامل مع قضايا هذا العلم ومضامينه على نحو يتسم بالوضوح والدقة، ولذا فإن لكل علم مصطلحاته الخاصة به. وحين نقف على مصطلح الخطاب نجد أن هذا المصطلح لا ينتمي إلى حقل علمي محدد، بل هو مصطلح عابر للحقول المعرفية، كما أنه مثل معظم المصطلحات الحديثة عابر للغات والثقافات، مما يجعل أمر تعيين المفاهيم التي يحملها في الثقافات المستقبلية أمرا غير سهل.

إن الاشتغال بمصطلح الخطاب وتحليل الخطاب يقع في سياق ظاهرة الاستهلاك التي تمارسها الثقافات المستقبلية التي تقع تحت تأثير الآخر المتفوق، وتلجأ في الوقت نفسه إلى العودة إلى البحث في تراثها أو مخزونها الثقافي لإيجاد مقابل أو مواز لما وفد عليها، وهو ما نجده في الدراسات التي تعنى بالخطاب، فهي من جانب تحتفي بالمصطلح الوغد وتعتمد في الوقت نفسه إلى معاينة ما يشبهه أو يقابله لديها لتصل إلى شكل من أشكال التوازن الذي يرمي إلى ترك انطباع بعدم الاستلاب للغريب.

وسأشير فيما يلي إلى هاتين الصورتين قبل النظر في ظاهرة الانشغال بالخطاب في الدراسات الحديثة.

### مصطلح الخطاب في الثقافة العربية:

والخطاب في الدراسات العربية بمفاهيمه الحديثة مصطلح وافد من الثقافة الغربية، ويحمل فيها دلالات متعددة بتعدد الحقول التي يدخل فيها، وهو يتداول بوصفه مقابلا عربيا للمصطلح الغربي Discourse الذي تشكل في سياقات ثقافية

مباينة لتلك السائدة في الثقافة والمجتمع العربي، ولعل هذا ما يجعل المرء يتساءل عن إمكانية تحميل هذا المصطلح مفاهيم اجتماعية كذلك التي يحملها في سياقاته الأولى. وهذا الأمر مرتبط بكون المصطلح الغربي قد انبثق وتشكل في سياق اجتماعي له سمات مباينة للثقافة المستقبلية، ولو كان الأمر يتعلق بمسألة علمية لكان ذلك مقبولاً. (المادة المتعلقة بهذا الجانب تتكرر في كل الدراسات التي عالجت موضوع الخطاب).

يرتبط مصطلح الخطاب في دلالاته الأولى بالمحادثة أو بالحديث الحواري، ولعل استحضر الآية القرآنية الكريمة: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" تبين في بنيتها اللغوية عن حديث حواري مكون من "خطاب" ورد عليه. وهذه الدلالة لم تكن الوحيدة، فقد ورد الخطاب في مواطن أخرى من القرآن الكريم بدلالات أخرى، فقد وقف الفقهاء والمفسرون عند الآية الكريمة "وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ"، وقدموا تفسيرات متعددة دار معظمها على عناصر لغوية وفقهية، فقد ذهب بعضهم إلى الوقوف على الدلالة المتعلقة بالبنية اللغوية التي تحدد المعنى حين أشير إلى أن فصل الخطاب هو الكلام الواضح البين الذي لا يلتبس على السامع أو القارئ، كما يتعلق بمكان الفصل والوصل في الخطاب، فلا يقرأ مثلاً الكلام مقطوعاً عن المعنى في قوله تعالى "ولا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى".

وفي السياق الفقهي ذهب أكثر الفقهاء، "في فصل الخطاب، أنه فصل الحكم والقضاء. وقال الضحاك بن مزاحم: فصل الخطاب العلم بالقضاء. وروي عن شريح والحسن البصري، أنهما قالاً: فصل الخطاب الشهود والأيمان، ذهب إلى أنه يجب بهما الحكم وتفصل الأشياء". (الصولي، أدب الكتاب، الموسوعة الشعرية).

وقد دارت معظم دلالات الخطاب في المعاجم العربية على هذه الدلالات كما نجد مثلا في لسان العرب: "الخطاب والمُخاطَبَةُ: مُرَاجَعَةُ الكَلَامِ، وقد خاطَبَهُ بالكَلَامِ مُخاطَبَةً وخطابا وهما يتخاطبان.... قال بعض المفسرين في قوله تعالى: وَفَصَّلَ الخطاب هو أَنْ يَحْكُمَ بالبيِّنَةِ أَوْ اليمِينِ؛ وقيل: معناه أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ويُمَيِّزُ بَيْنَ الحُكْمِ وِضْدَهُ وقيل فصلُ الخطاب أَمَّا بَعْدُ؛ وداوُدُ، عليه السلام، أَوَّلُ من قال: أَمَّا بَعْدُ؛ وقيل: فصلُ الخطاب الفِئَةُ في القَضَاءِ. (انظر عرضا لهذا الجانب في: مها العتوم: تحليل الخطاب في النقد الغربي الحديث، 5 - 10).

ويرى التهانوي (ت ق 12هـ) في "كشافه" أن الخطاب: "توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، ثم نُقل إلى الكلام الموجّه نحو الغير للإفهام. وقد يعبر عنه بما يقع به التخاطب. قال في الأحكام: الخطاب اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه". (كشاف، مادة الخطاب).

وفي هذا السياق قدم مختار الفجاري دراسة بعنوان: "تأصيل الخطاب في الثقافة العربية" مقررًا أن "أهم منطلق لتأصيل مصطلح الخطاب Discourse داخل الثقافة العربية هو تحديد مختلف معاني الكلمات المؤلفة من هذه المادة - الأصل خطب . وليبيان ذلك تكون المعاجم العربية وكتب اللغة والفكر والأدب القديمة هي المرشحة لذلك...". واعتمادا على هذه المصادر قدم قراءة لحضور المصطلح ودلالاته في الثقافة العربية في مقابل المفاهيم التي يحملها المصطلح الأوروبي. وقد حدد المعاني التي يحملها الخطاب في الشأن والغرض، وفي الدلالة على السلطة، وفي المحاور. وهذه الدلالات تلتقي بالدلالات التي يحملها المصطلح الحديث، وبخاصة في السياق الفلسفي كما هي الحال في بعض طروحات فوكو (انظر الفجاري: 1993، 100-101).

## المصطلح في الثقافة الغربية:

أما الأصل اللغوي للخطاب Discourse في اللغات الأوروبية فيعاد إلى الأصل اللاتيني Discursus (Discurrer) الذي يحمل دلالة التحرك ذهاباً وإياباً وهو المعنى الذي يستعمله الفلاسفة للتعبير عن تبادل الأفكار. كما أن كلمة الخطاب تعبر عن الجدل والعقل أو النظام. (بغورة: 2000، 90). وقد ورد عند هابرماس لدلالة على التواصل اللغوي المبني على الحجج أو التعليل. وتقدم المعاجم اللغوية الأوروبية ومعاجم المصطلحات العلمية مادة تشمل حقولاً متعددة يدخل فيها الخطاب، كما هي الحال في معجم A Dictionary of Stylistics الذي يعرض لمعاني المصطلح لغوياً قبل أن يقف على مفاهيمه في الحقول الفلسفية واللسانية والاجتماعية مقدماً طيفاً واسعاً من التصورات النظرية المختلفة.

لقد أصبح مصطلح الخطاب متداولاً وشائعاً في مجموعة من الحقول: النظرية النقدية وعلم النفس واللسانيات والفلسفة وعلم النفس الاجتماعي وعدد من الحقول الأخرى إلى حد أنه ترك مبهماً مراراً، كما لو كان استعماله معرفة مألوفة وبسيطة. وقد استعمل الخطاب بصورة واسعة في تحليل النصوص الأدبية والنصوص غير الأدبية موظفاً دوماً في الإشارة إلى خبرات نظرية معينة بطرق غامضة وأحياناً مشوشة. وربما كانت لمصطلح الخطاب عرض سلسلة من الدلالات الممكنة من أي مصطلح آخر في النظرية الأدبية والثقافية. ومع ذلك كان دائماً هو المصطلح الأقل تعريفاً عند استعماله في النصوص النظرية. (سارة ميلز: الخطاب، nizwa.com).

ولعل التأكيد على عدم تحديد المصطلح وانفتاح مفاهيمه على احتمالات غير محدودة قد جعل من الممكن استعمال مصطلح الخطاب أمراً غير خاضع إلا

لرؤية الباحث وللحقل الذي يعمل فيه، إنه مصطلح مائي يأخذ شكل ولون الإناء الذي يوضع فيه، وهذا ما جعلنا نقف على موجة من الدراسات المعنونة بالخطاب أو بتحليل الخطاب دون سند معرفي أو منهجي، وهو ما جعل كل شيء خطابا.

وهنا أود أقف عند أكثر منظري الخطاب شهرة وتأثيرا وهو ميشيل فوكو الذي الذي خصص للخطاب كتابين من كتبه، وهما: أركولوجيا المعرفة 1969، ونظام الخطاب 1971، وقدم فيهما تصوره للخطاب، وهو تصور يفارق بصورة واضحة المفهوم عند سابقيه، ومن خلال الاستعراض التاريخي لمفهوم الخطاب في الثقافة الغربية يتبين:

١ - "ارتباط الخطاب بالفلسفة والمنطق من حيث كونه "عملية عقلية منظمة تنظيما منطقيًا أو عملية مركبة من سلسلة من العمليات العقلية الجزئية أو تعبير عن الفكر بواسطة سلسلة من الألفاظ والقضايا التي يرتبط بعضها ببعض".

٢ - أن الخطاب أصبح توجهها في الدراسات الألسنية... تعبر عنه أعمال بنفيسيت ومدرسة تحليل الخطاب الفرنسية.

٣ - أن ميشيل فوكو الذي اعتمد على هذه الخلفية الفكرية وخاصة على أعمال ليفي شتراوس وبنفيسيت قد اختلف مفهومه للخطاب عن سابقيه. (انظر بغورة، 2000، 93 ومصادره).

لقد قدم فوكو تعريفا جديدا للخطاب لا يستند إلى أسس ألسنية أو منطقية، بل يتشكل من مجموعة من المنطوقات بوصفها تنتمي إلى ذات التشكيلية الخطابية فهو ليس وحدة بلاغية أو صورية... بل عبارة عن عدد محصور من المنطوقات التي نستطيع تحديد شروط وجودها (فوكو: حفريات المعرفة 1968،، 78 وانظر النص وتعليق عليه بغورة 2000، 95).

ومن المهم التوقف عند مصطلحين استعملهما فوكو في إطار نظريته في الخطاب وهما الأركولوجيا والجينالوجيا، وموضوع الأركولوجيا عنده "ليس اللغة وإنما الأرشيف أي الوجود المتراكم للخطابات، فالأركولوجيا كما يقول ليست جيولوجيا أي تحليل للطبقات الأرضية، ولا جينا لوجيا أي وصف للبدائيات والتواريخ وإنما هي تحليل للخطابات في صيغة أرشيف" (بغورة 2000، 114).

وهذا ما يقود إلى مصطلح محوري آخر لديه وهو تحليل الخطاب الذي يستند إلى نظام الخطاب عنده، إذ إنه يمثل مفهوما يتعلق بالمعرفة والقوة، والآثار التي يتركها في سياقاته، ولذا فإن:

".. منهج تحليل الخطاب عند فوكو، لا يحلل نظام اللغة أو المضامين أو الدلالات، كما لا يهتم بصدق الخطابات أو معقوليتها، وإنما ينصب التحليل على المنطوقات كأحداث وعلى قوانين وجودها، وعلى ما يجعلها ممكنة أو غير ممكنة" (بغورة: منهج في تحليل الخطاب، مجلة إبداع، القاهرة، ابريل . مايو 2000م ص 109).

وتورد سارة ميلز نماذج من تحليل فوكو للخطاب تركز على أسس المعرفة والسلطة، وهي نماذج تتعلق بالخطاب في سياقات اجتماعية، و توضح في الوقت نفسه أن فوكو لم يكن معنيا بالخطاب الأدبي إذ يذهب إلى " أن كلمة أدب في العصر الحديث وفي ثقافتنا أيضا تعني انفراد لغة معينة بأسلوب غير مألوف كي تبدو أدبي...الأدب هو الصراع مع فقه اللغة... إنه يقود اللغة من النحو إلى قوة الكلام المجردة، وهناك تصادم بالوجود الجامح والمتغطرس للكلمات ". (فوكو، 1970: 299 - 300 عن سارة ميلز).

على الرغم من أن نظرية الخطاب قد تكونت تحت تأثير الانتقادات الموجهة لثلاثة تيارات أو تقاليد فكرية ألا وهي البنيوية والتأويلية والماركسية... وأن أكبر أهداف تحليل الخطاب الكشف عن القوانين ذات نشأة التاريخية التي تضع بنية أو تؤطر إنتاج المعاني في سياق اجتماعي محدد (محمد الصقار 101، 2005)، وعلى الرغم من أن تحليل الخطاب "يختلف عن التحليل الألسني أو التحليل المنطقي" (بغورة، إبداع 2000، 107) - فإن كثيرا من الدراسات تقوم على دراسة الأدب وعلى تحليل ذي توجه ألسني أو بنيوي، بمعنى أن الأسس التي وضعها فوكو مثلا لم تعد حاضرة في ما يسمى تحليل الخطاب.

إن استقراء الدراسات الحديثة المتعلقة بالخطاب يضع المرء أمام كم ضخم من مادة غير متجانسة في أطروحاتها وحقولها ومناهجها ومفاهيمها، فمصطلح الخطاب وتحليل الخطاب يحضر بصورة واسعة في عناوين الكتب والأبحاث دون أن يكون له في كثير من الأحيان ارتباط بالموضوع المطروح، فنحن نقرأ: الخطاب اللساني، والخطاب الديني، والخطاب الروائي، والخطاب السلفي، والخطاب الشعري، والخطاب السياسي، والخطاب الجنسي، والخطاب النسوي، والخطاب النقدي، ولا شك أن هذه كلها يمكن أن تكون خطابات، ولكن المسألة تكمن في أن المادة التي تضمها أو تقدمها أكثر هذه الدراسات لا تنهض على استعمال علمي منهجي للخطاب ومفاهيمه، فهي تستعمله على نحو لا يخضع لمعايير نظرية أو إجرائية معينة، مما يعني أن مصطلح الخطاب بدأ يحل محل كلمة لغة أو مقال أو نص. وتتنعمق هذه الحال حين يعلق بها تحليل الخطاب، إذ نجد سلسلة طويلة من الدراسات التي تعنون بتحليل الخطاب، وهي في واقع الأمر ليست سوى قراءات تقليدية لنصوص لا علاقة لها بالخطاب أو بالمفاهيم التي يحملها.

ويقود تأمل هذه الدراسات إلى تبين نمطين متكررين، هما:



- الترجمات أو القراءات التي تعالج هذا المصطلح في إطار الثقافة الغربية، وهي تتمثل في ترجمة النصوص النظرية الغربية أو عرضها في صورة شروح أو اقتباسات مطولة توضع في سياقات نظرية مستقلة حيناً، أو في مقدمات لدراسات تحمل في عناوينها الخطاب أو تحليل الخطاب. وبعض هذه الترجمات أو القراءات تمتاز بالدقة والعمق مثل أعمال الزواوي بغورة الذي وجه اهتماماً خاصاً لنظرية ميشيل فوكو في الخطاب.

- الدراسات العربية التي تحمل في عناوينها مفردة أو مصطلح الخطاب، سواء أتعلق الأمر بالخطاب بوصفه مصطلحاً يحمل مفهوماً أو مفاهيم يجب أن تبنى عليه أو عليها هذه الدراسات أم لا. وفي هذا الإطار نجد عشرات الكتب ومئات من الأبحاث التي تستعمل أو تستلمح المصطلح دون أن يكون له صلة بموضوع الدراسة.

إن ما يجب ذكره هنا أن المصدر الأصلي للخطاب يحمل هذه الصورة غير المستقرة للمصطلح ومفاهيمه، وذلك لأنه أخذ صورة الواجهة للدراسات المختلفة في حقول علمية مختلفة التي صبغته بصبغتها، فقد ذهب هوارث إلى القول: " رغم أن مفهوم الخطاب نشأ في مجالي اللغويات والسيموطيقا إلا أنه قفز للعديد من فروع ومجالات العلو الإنسانية، إذ يستخدم تحليل الخطاب في الانثروبولوجيا والتاريخ وعلم الاجتماع والتحليل النفسي ودراسات ما بعد الكولونيالية والعلوم السياسية وتحليل السياسات العامة، مما جعل مفهوم الخطاب يشغل مكاناً محورياً تزايد أهميته في العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة. على أن الكم الغزير من الدراسات... لم يؤد إلى صيغ المفهوم بلون ثابت واضح يميزه عن غيره من المفاهيم، بل على العكس من ذلك تماماً فقد جعلت تلك الدراسات مفهوم الخطاب كالحرباء يتلون بلون الخلفية التي يقف أمامها، إذ فرض كل حقل معرفي عند استخدامه للمفهوم مسلماته ومقولاته وإشكالاته عليه، بحيث صار المفهوم يتسم

بالنسبية والاختلاف الشديدين. فبينما يضيق البعض مفهوم الخطاب ليقصر على مجرد أساليب الكلام والمحادثة يوسعه البعض الآخر ليجعله مرادفا للنظام الاجتماعي برمته حيث يصير كل شيء خطابا". (هوارث 2000، 1-3، عن محمد الصفار 2005، 100).

فإذا كان هذا الأمر قد حدث في إطار الثقافة المنتجة للمصطلح فليس غريبا أن نجد صدهاء غير المنضبط في الثقافة العربية المتلقية له على نحو غيرنسقي أو منهجي. وهو ما مكن من زج الخطاب في كل الموضوعات بغض النظر عن علاقتها أو عدمها به.

لقد أنتج الاشتغال بهذا المصطلح ومفاهيمه الرغبة لدى الباحثين العرب للبحث عن مقابل عربي له في تراثنا، ولذا فقد ذهب بعض الدراسات العربية إلى البحث عن جذور هذا المصطلح في الثقافة العربية، وحاولت تقديم عرض لدلالاته اللغوية والاصطلاحية في المعاجم وكتب التراث على اختلاف حقولها، على نحو يظهر اقتفاء لما وجدوه في الثقافة الغربية. ومن ذلك عمل مختار الفجاري: "تأصيل الخطاب في الثقافة العربية 1993" الذي عمد فيه إلى استقراء مادة خطب في القرآن الكريم وفي المعاجم العربية، وكتب التراث.

لكن الأمر الذي يستوقف المرء هو أن دراسة عربية واحدة لم توضع في الخطاب منبثقة من التراث العربي ومكتفية به قبل شيوع المصطلح الوافد، بل إن كل الدراسات التي اطلعت عليها قد وضعت بتأثير من الاشتغال بالخطاب في الثقافة الغربية، مما يعني أن هذه الدراسات جاءت صدى لمقابلها الغربي، لكن في صور متباينة من الأصداء التي يقود بعضها إلى سوء فهم قد يولد نظرية أو نظريات جديدة، وهذا أمر محمود إن حدث.

وثمة ملاحظة أخرى في هذا السياق وهي أن المادة المتعلقة بهذا الموضوع في معظم الدراسات العربية مادة مكررة، إذ يمكن للمرء أن يقرأ عشرات الدراسات والأبحاث دون أن يجد شيئاً جديداً، فهي تعيد المادة نفسها والأسماء نفسها على نحو يتسم في كثير من الأحيان بالغموض وغياب المعنى، لأن المادة المنقولة تقع في سياق ثقافي مختلف تماماً، ولأن الترجمة المهمة أساساً بالتنظير لا تسعف في كثير من الأحيان على تشكيل تصورات واضحة عن الأفكار المطروحة في هذا السياق الذي غلب الجانب الفلسفي وبخاصة حين يتعلق الأمر بما قدمه ميشيل فوكو.

ويمكن أن يكون كتاب محمد عزام "تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية" نموذجاً للكتب التي تحمل عنوان تحليل الخطاب، ولكنها تناقش المناهج الحداثية المختلفة كلها دون توقف عند الحديث عن معنى تحليل الخطاب، فهو يعرض ما قدمه كمال أبو ديب في "جدلية الخفاء والتجلي"، وهو تحليل بنيوي إلى جانب عمل الطاهر لبيب في "سوسولوجيا الغزل العذري"، وعمل محمد بنيس في ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب". وهذا عمل يعني ألا علاقة له بتحليل الخطاب بالمفهوم الاصطلاحي، وإنما استعمل كلفمة خطاب استعمالاً عاماً. ومثل هذا الأمر يمكن مناقشته في "تحليل الخطاب الروائي" عند سعيد يقطين. ولعل معاناة المزيد من الدراسات العربية تظهر على نحو عميق أن استعمال المصطلح أو منحه المفهوم الذي يريده الباحث تم دون ضوابط منهجية أو معرفية.

## المصادر

- إبراهيم، عبد الله: الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، الدار البيضاء بيروت 1999.
- بغورة، الزواوي: مفهوم الخطاب في فلسفه ميشيل فوكو، القاهرة، 2000.
- بغورة، الزواوي: منهج في تحليل الخطاب، مجلة إبداع، القاهرة، ابريل . مايو 2000م ص 109).
- التهانوي، محمد علي : كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، تح. رفيق العجم وعلي دحروج، بيروت 1996.
- سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، الدار البيضاء- بيروت 1997
- الصولي، أبو بكر: أدب الكتاب، الموسوعة الشعرية، الإصدار الثالث. العتوم، مها: تحليل الخطاب في النقد العربي الحديث، دراسة تحليلية في النظرية والمنهج، أطروحة دكتوراه، الجامعة الأردنية، 2004.
- الفجاري، مختار: تأصيل الخطاب في الثقافة العربية 1993، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع 100-101.
- فوكو، ميشيل: حفریات المعرفة، تر. سالم يفوت، الدار البيضاء، 1986.
- محمد الصفار: تحليل الخطاب وإشكالية نقل المفاهيم، النهضة، مج 6، ع4 ص99-110.
- محمد عزّام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحدائثية، دراسة في نقد النقد
- محمد علي الكردي: الخطاب واللغة عند ميشيل فوكو، فصول، مج 11، ع!، 1992.

- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت، 1968.
- ميلز سارة: الخطاب، تر. غريب اسكندر، مجلة نزوى، الموقع الالكتروني  
<http://www.nizwa.com/articles>.

Katie Wales: A Dictionary of Stylistics, London , 1989.-

## التعليقات والمناقشات

### - أحد الحاضرين

يشير إلى ما يراه د. زياد من أن الغرب يأخذون مفاهيم العرب كما هي كالجهاد مثلاً، وهذا - وفق رأيه- مجافٍ للحقيقة فالجهاد عندهم يعني الإرهاب؛ لذا يرى عدم التسليم بهذا الرأي خاصةً في المصطلحات السياسية.

وحين تحدث د. زياد عن "ميشيل فوكو" قال: إنه لا يهمنه الصدق أم الكذب، الخطأ أم الصواب ويتساءل المتحدث: إذاً ما الذي كان يهمنه؟؟! ويميل هنا إلى القول: إن الغربيين يحكمون القوة؛ فالقوي لديهم هو المصيب مهما كان مخطئاً.

### - د. فتحي ملكاوي

يرى أن المفهوم المتحدث عنه - كما يبدو - هو مفهوم، سائل مائع مائي... الخ، ويقول: كأنتي أرى الحل في كلام د. زياد قطيعةً بين الدلالة التي تختلف عليها في الأصل الغربي أو الثقافة الغربية عمّا يمكن أن نبنيه لأنفسنا من دلالة معينة في الثقافة العربية. وكلمة الخطاب -في ظنّه- كلمة عربية وأصلها الثلاثي معروف واستعمالها في اللغة القديمة والحديثة موجود وبدلالات محددة، ويتساءل: ما المشكلة في ربط هذه الدلالات التي يمكن تقصّيها واستقراؤها بشكل جيد بالدلالة الغربية؟؟! لم لا يكون هناك شيء من التحديد في الثقافة العربية؟؟! على سبيل المثال: الخطاب الأشعري والخطاب الاعتزالي في مجال علم الكلام... الخ، ففي المجمل هناك مضمون معين ودلالة معينة لكلمة الخطاب كمفهوم وكمصطلح.

ويقول: ما المشكلة في بناء دلالة محددة لهذه الكلمة لتكون مفهوماً ومصطلحاً في الثقافة العربية الأصيلة. ثم لا مانع عندنا أن نقول: إن ما يمكن أن يكون قابلاً لهذا المصطلح عند الغربيين هو كذا وكذا وإن كانت جذوره مختلفة عن

جذور المصطلح لدى العرب، فهل في هذا نوع من التبسيط أم أنه حلم غير قابلٍ للتطبيق؟؟

- أحد الحاضرين

يقول: إن معجزة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- هي البيان فقط، وإن لم ترتبط اللغة العربية بالدين فلا قيمة لها، ومن هنا استطاع الغرب السيطرة علينا بثقافته وبأفكاره.

ويوجه المتحدث سؤالاً خاصاً بكلمة الجهاد التي تطرق إليها الدكتور زياد في بحثه يقول: ما سبب ذكرك أخذ الغرب كلمة الجهاد عن العرب، وعدم تفسيرك لمدلولها عندهم؟

- هالة فزاع/ طالبة دكتوراه

ترى أن المشكلة تكمن في تحديد المفهوم الذي يؤدي إلى تحديد المصطلح بدليل ما ذكره المحاضرون، من أن تحليل الجملة أو النص عند الغرب مختلف عما هو عليه عند العرب؛ فكلانا يستخدم المصطلح نفسه، ولكن بمدلولات أخرى. وتتساءل: هل نفهم من ذلك أن تحليل الخطاب عند الغرب أو عند هاليدي تحديداً يعني التحليل الاجتماعي مثلاً!!

- رد الدكتور زياد الزعبي

يرد قائلاً: لست معجباً تماماً بالغرب وهذه قضية ليست متضمنة في الخطاب، وإنما أحاول -بموضوعية مطلقة- أن أقول ماذا يملك الغرب وماذا نملك، وهذه مسألة لا علاقة لها بالإعجاب.

وحين قلت: إنَّ الجهاد انتقل إلى أوروبا بمفهومه المعروف لدينا، نعم، هو انتقل بمفهومه طبعاً، ودليل ذلك: كتاب غربي عنوانه: "الجهاد وعالم ماك" مترجم

إلى العربية؛ إذ انتقل المصطلح وحمل مفهوم الجهاد كما هو في الثقافة العربية بمعنى أنهم أبرزوا تماماً معنى هذا المفهوم في هذه الثقافة. وعندما انتقل إليهم عالجوه على هذا النحو ومن ثمّ حملوه مفهوماً يرتبط بالثقافة الغربية، فمن يفجّر نفسه، ويقول: أنا مجاهد، عدّوه إرهابياً. وبالتالي أصبحنا أمام صورة في منتهى الوضوح، فالصورة كالآتي: أنقل هذا المصطلح وأعيه تماماً وأعرف ماذا يعني في إطاره الثقافي وأعرّفه وفق إطار ثقافي آخر، فهذه قضية محورية يجب أن تدرك؛ ولذلك لدينا مشكلة مع أنفسنا، سببها قوقعة المجتمع العربي.

وعندما تحنك بالثقافة الأجنبية بشكل مباشر سوف تعرف أكثر، فهم يعرفون عنّا أكثر مما نعرف نحن عن أنفسنا؛ والمعرفة سلطة، والخلاف بيننا ليس المصطلح بحد ذاته وإنما تحديد المفاهيم، وقد تحدثت عن (المصطلح) المفردة اللغوية في أصولها المختلفة، في لغات مختلفة وليس في اللغة العربية أو الإنجليزية وحسب. فالمصطلح كلمة واحدة تحمل آلاف المفاهيم في الحقول المختلفة أو نفسها في الحقل نفسه، كما اختلف على مصطلح (discourse) بين الثقافة الغربية الفلسفية والمنطقية قبل فوكو وبعده؛ فهذا موجودٌ في الثقافات كافة، والمصطلح عملية تواطؤ لتحميل مفاهيم عليه في حقل معيّن.

وفيما يخص فلسفة فوكو يقول د. زياد: هناك منطق ولا منطق وهناك أرشيف أو نصّ، فمن قال مثلاً: الرقية الشرعية أفضل من الطب نقول له: هذا كلامٌ لا يخضع للمنطق أو للصدق أو للكذب، وإنما يخضع لعملية خطاب إقناعي يستند إلى المعرفة والسلطة التي تريد أن تنتقل إليك المفردة بغض النظر عن أي شيء آخر. وما يهمنا هنا هو الإطار الذي أسماه فوكو (الأرشيف الخطابية) الملفوظ القائم على أنني أوجه إليك شيئاً من أجل السيطرة عليك أو إقناعك.



وفي سياق ردّه على د. ملكاوي يرى أننا نستطيع أن نقدّم موازياً عربياً لما يأتينا شريطة ارتباط المفاهيم بالمصطلح الأجنبي الوارد إلينا.

ويتمنى أن يكتب باحثٌ عربيّ عن المصطلح قبل أن يردنا من الخارج؛ فمثلاً كتاب أرسطو، الكتاب الثالث في الخطابة المترجم بـ (العبارة أو الأسلوب) وضع كل أسس علم الأسلوبية ليس بمفاهيمها التفصيلية وإنما بأطرها العامّة؛ لذا يرى أننا نعاني مشكلة محورية وهي عدم معرفتنا بترائنا معرفة حقيقية أو صحيحة، وإنما نعرف مسارب باتجاه واحد في الجامعات العربية كلها.